«عنوان بيتنا».. رسالة قديمة لأبي

(١)

في ذلك الزمن لم تملك العائلات المصرية من سبل التواصل مع أبنائها المغتربين سوى رسائل البريد، والمكالمة الدولية من السنترال –للقادرين فقط– ومعهما ظهر اختراع مصري هو أشرطة الكاسيت المسجلة بأصوات الأهل والأحباب.

لم أبلغ عامي الثالث عندما وضعت أمي الكاسيت أمامي، ودعتني لأنطق ما أقدر عليه؛ كي تصل كلماتي المعدودة إلى والدي في «الدوحة»، فيردُّ هو بعد عدة أشهر بشريط آخر يحمله لنا أقرب رفيق عائد إلى مصر، كانت المكالمات «على القد»، والكلمات بالكاد لا تكفي مشاعر زوجين شابين تفصل بينهما آلاف الأميال.

اعتادت أمي أن تختم كل شريط بأغنية تنطق بما تخفي نفسها، إلا أن أغنية «عنوان بيتنا» لعلي الحجار ظلَّت عالقة في ذاكرتي حتى الآن، شيء ما في تلك الأغنية ارتبط بصورة ذهنية ترسخت لديَّ حول علاقة أمي وأبي، كبرتُ وظلَّ سرُّ الأغنية الوحيدة التي أحبها لعلي الحجار يطاردني.

التقيت بعلي الحجار فلم أجد لديه ما يحكيه، صدمني ردُّ مطرب كبير حول عمل أراه الأقرب لي كمستمع، ويراه هو مجرد محطة مهمة في مشواره، ولكن «علي» لم يعترف بأن الصدفة وحدها منحته نجاحًا كاد أن يتخلى عنه.

يحكي لي الموسيقار خليل مصطفى مُلحن الأغنية قصتها وابتسامة عريضة تتصدَّر كلماته: ثمة صداقة نشأت بيني وبين «علي» قبلها بسنوات، عن طريق شقيقه أحمد الحجار، تعاونّا في أولى أغنياتي «كان إحساس صحيح» ونجحت، واستمر التعاون في ألبومه «ماتصدقيش»، كنا نلتقي يوميًا بحكم التحضيرات المستمرة، وفي إحدى المرات سمعت كلمات أغنية عرضها عليه الشاعر محمد البنا، كان مطلع الأغنية يقول:

«عنوان بيتنا زي ما كان.. بس انت نسيت العنوان»

«ابعت واسأل وبلاش تتقل.. لاحسن ناخدع النسيان»

(٢)

يربط خليل مصطفى دائمًا بين الكلمة واللحن، والرابط الأصدق هو الصورة، وهنا يقول الرجل الذي لحَّن فيما بعد أقوى أغنيات المرحلة؛ مثل «السهرة تحلى»، «الشمس الجريئة»، و«خالصين»: «بمجرد أن سمعت الكلمات تخيّلت مشهدًا لفتاة بملاية لف تسير في حارة شعبية بينما يغازلها

شاب جالسًا على المقهى مرتديًا بدلة وطربوش، وكأن طيفًا زارني من أفلام حسن الإمام؛ ليمنحني جملة موسيقية راقصة».

هل التقط علي الحجار الفكرة، مستغلًا طاقة النور التي أضاءت في هذه اللحظة؟

يتابع خليل مصطفى: «طلبت من علي أن ألحن الأغنية، فقال إنه يعتزم إسناد تلحينها لأحمد منيب، كان علي يفكر في شكل موسيقي جديد، وسريعًا وجد ضالته لدى منيب الذي حقق نجاحات قوية مع محمد منير، وقتها تحولت ألحان منيب النوبية لموضة بعيدة عن الشكل الطربي الشرقي الذي احتلّ الساحة لعشرات السنين».

هل استسلم «خليل»؟ لا؛ فهو يقول: «لا أترك كلمة تعجبني دون أن ألّحنها، ولهذا أخذت الكلمات، وقررت أن ألّحنها لنفسي، لكن النتيجة كانت أسرع مما أتخيل».

طوال طريق عودته لمنزله بالمهندسين كان «خليل» يدندن كلمات الأغنية على الجملة الموسيقية التي عُرفت بها الأغنية فيما بعد، ولكنه لا يحمل عودًا ولا كاسيت كي يغني اللحن، ويسجله؛ لحفظه من النسيان.

على كوبري أبو العلا صادف عازف الناي د.نبيل برجاس، فطلب منه التوقف ليُسمعه شيئًا، جلس الاثنان على ظهر سيارة «خليل» الذي غنّى و«نبيل» يعزف بالناي؛ حتى حفظ الصولو والجملة الموسيقية التمهيدية، وشيئًا فشيئًا حفظ الأغنية كاملة، وانتهى كل شيء هنا.

بعد يومين اتصل علي الحجار بخليل مصطفى، وطلب

منه الحضور للاستوديو فورًا، وصل «خليل»، فبادره «علي» قائلًا: سمّعني اللحن بتاع «عنوان بيتنا».

يقول «خليل»: «دهشت من الطلب، اللحن على ذمة أحمد منيب، ولكن علي أصرَّ، وقال إن ما سمعه من نبيل برجاس أعظم من أي لحن آخر قد يسمعه للأغنية، وبالفعل لحَّنت الأغنية، وحققت نجاحًا كبيرًا فتح أمامي مزيدًا من أبواب النجاح، بعدها تعرّفت على مدحت صالح، وكان لنجاحي معه قصة أكثر طرافة».

وكأن خليل مصطفى كان حامل توكيلات النجاح للأغاني التي صدرت في مطلع الثمانينيات، امتلك بين يديه شاعرًا فذًا هو رضا أمين، وانطلقا ليشكِّلا ثنائيًا ناجحًا، في الوقت الذي عرفه فيه الشاعر مجدي النجار على مدحت صالح.

للقصة بقية:

كان «مدحت» معجبًا بأغنية «عنوان بيتنا»، حتى إنه غناها له في أول لقاء بينهما، وطلب منه أغنية مشابهة، فعرض عليه «خليل» أغنية مختلفة تمامًا هي «السهرة تحلى».

يقول «خليل»: طُفت على مطربي مصر أجمعين أنا ورضا أمين؛ لنقنعهم بأغنية «السهرة تحلى»، ولكن أحدًا لم يجرؤ على غنائها، حتى علي الحجار اعتبرها أغنية «كباريهات»، كان مطلعها يقول:

السهرة تحلى سوا سوا .. والنسمة أحلى هوا هوا

هنغني غنوة سوا سوا سوا.. والسهرة تحلى

أقنعت «مدحت» بعد جهد، وقرر غناءها على مسؤوليتي،

فـماذا حدث؟

لم تـترك الأغنيـة سـيارة ملاكـي أو أجـرة إلا وكانت قادمـة منها، انتـشرت ونجحـت بدرجـة أدهشـتنا، أصبـح «مدحـت» مطـرب الأفـراح الأول، وتسـابقت الكازينوهـات والفنـادق عـلى حجـزه كفقـرة ثابتـة في برامـج سـهراتها، كل الأصـوات التـي رفضـت الأغنيـة عـادت لتطلـب واحـدة تشـبهها، ولكـن الرصاصـة التـي تخـرج مـن المسـدس لا يمكـن أن تعـود لـه مجـددًا.

منـذ الطفولـة يسـتقر في ذاكـرتي مشـهد مدحـت صالـح وهـو يغنـي «السـهرة تحـلى» في حفـل زفـاف أحـد أقاربنـا، كان شـابًا نحيـلًا يرتـدي بدلـة سـوداء لامعـة ورابطـة عنـق حمـراء، ولكـن الأغنيـة لم تسـتقر في الوجـدان مثـل «عنـوان بيتنـا»، مـا زلـت أدندنهـا، ولم تعـد أمـي كذلـك، أمـا أبي فلـم ينـسَ العنـوان يومًـا!

«عنوان بيتنا»
غناء: علي الحجار
كلمات: رضا أمين
ألحان: خليل مصطفى
توزيع: عماد الشرنوبي
إنتاج: صوت الدلتا